

(الدرسُ البلاغيّ والفلسفةُ العربيّةُ) قراءةٌ في بعض المفاهيم البلاغية لدى ابن سنان الخفاجي من خلال كتابه سرّ الفصاحة وسمات تأثره بالمنطق العربي

■ طارق فرج علي محمد الواحدى*

● تاريخ استلام البحث 2022/09/14 م ● تاريخ قبول البحث 2022/10/16 م

■ الملخص:

إن ارتباط الفلسفة العربية بعلم البلاغة، يعدّ أمراً جديراً بالبحث والتقصي فهما علمان جليان من أهم ركائز الحضارة العربية آنذاك، ويهدف العمل البحثي إلى تتبع بدايات ارتباط الفلسفة العربية بالبلاغة، منذ اشتغال المتكلمين من علماء المعتزلة والأشاعرة بهذا العلم، كما يهدف إلى النظر في كتاب سرّ الفصاحة للعالم الجليل ابن سنان الخفاجي، الذي أظهرت تحليلاته ارتباطاً كبيراً بالفلسفة من خلال تعريفاته وشروحاته، وقد اتبع الباحث في عمله هذا المنهج الوصفي التحليلي، بوصفه للظاهرة كما وكيفاً من خلال مدخل تاريخي، وتحليله لرؤى وأفكار وفلسفات الخفاجي من خلال كتابه سرّ الفصاحة.

● الكلمات المفتاحية: الفلسفة، المعتزلة، الأشاعرة، ابن سنان، الخفاجي .

■ Abstract:

The connection between the Arabic philosophy and the study of rhetoric is considered as major material for research and Inquire for they are significant studies and are of the most grounds of the Arabic civilization at the time. And the research work aims to go after the very beginning of this engagement between the Arabic philosophy and the rhetoric. since the concerned speakers

* محاضر بقسم الأدبيات، كلية اللغة العربية، جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية. E - mail: Tarikfialwahdi@gmail.com

of the scientists of the Ash'ara and the Mu'tazila about this science, it's also aims to look closely in the book of Ser Al fsaha The Secret Of The Eloquence for the scientist Al Jalil Ibn Sinan Al Khajaji, whose his analyses showed a huge attachment with Philosophy through his definitions and explanations, and that's how the researcher followed in his research this descriptive analytical method, with describing this phenomenal with quantity and quality through Historical entrance, and analysing the visions and thoughts as well as the philosophies of Khajaji through his book Ser A lfsaha The Secret Of The Eloquence

Keywords: philosophy. Mu'tazila. Ash'ara. Ibn Sinan. Al Khajaji

■ مُقَدِّمَةٌ:

كانت المحاولات الفلسفية الأولى للعرب في تأطير بلاغتهم، محاولات تفسيرية لغوية للكتاب والسنة حول التصورات القرآنية والحديثية، فاختلّفوا في التفسيرات اللغوية وفي الأسماء والأحكام، فأدى ذلك إلى ظهور فرق متكلمة وقتئذ، أثرت على البنية اللغوية والتفسيرية، بل حتى في النظرة الشمولية للعلوم العربية ونخص بالذكر البلاغة العربية، التي كان للفرقة المعتزلية النصيب الجدلي الأكبر من حيث التكلم فيها بين قرنائهم .

إن الحديث حول تأثر العرب أو البلاغة العربية بالفلسفة اليونانية أمر أثّرت حوله إشكالات كثيرة، بين من يؤكد صحة ذلك ويفنده، وكل له حججه وبراهينه غير أن ظهور البلاغة كان في عهد أوج الحضارة العربية وازدهارها وهما العصر الأموي والعباسي، فلن نستطيع الجزم بالتأثير الكامل للفلسفة أو البلاغة اليونانية على البلاغة العربية، فكل لغة لها خصائصها ومميزاتها التي لا تتناسب مع بلاغة لغة أخرى، والقرآن الكريم لبّ البلاغة، والتفسيرات البلاغية للنصوص الأخرى غير القرآن العظيم ارتبطت بالقرآن، فنستطيع القول إن التأثير داخلي لا خارجي - غير معممين وجازمين بذلك - وهو تأثر العرب بأنفسهم أو بكتابهم المقدس، ولا ننكر جزماً أن تأثيرات الحضارات الأخرى قد طرأت على الحضارة العربية، لكن لا يُنسف علم مبتدعوه هم علماء العرب وأدباؤهم .

لسنا بصدد تتبع تأثر البلاغة بغيرها من بلاغات اللغات الأخرى، إنما موضوع البحث

هو معرفة وتتبع تأثر البلاغة بالفلسفة العربية الإسلامية وبدايات التأثر في ضوء تتبع ذلك من خلال بعض النماذج والقضايا البلاغية الفلسفية في ظل الحديث عن أعلام الفلسفة وبعض مؤلفاتهم التراثية القيمة، كما أنني أغفلت في التراتبية التاريخية - للأعلام المؤثرين في البلاغة من خلال منطقتهم - ذكر العلم المقصود بالقراءة والتحليل، لأن الباحث أفرد له مطلباً مستقلاً، وهذا لتجنب التكرار والإطالة والإسهاب

وقُسمت الدراسة إلى مطلبين وهما:

● المطلب الأول: البلاغة العربية والفلسفة .

● المطلب الثاني: قراءة موجزة لمفهوم التناسب في كتاب (سرّ الفصاحة) لابن سنان الخفاجي وسمات تأثره بالمنطق العربي .

■ إشكالية البحث:

تكمن إشكالية الدراسة في أن ربط البلاغة العربية بعلم الفلسفة يعد أمراً شائكاً وهذا ما يبعد بعض الباحثين عنه من ناحية الاستقراء العلمي، وسيحاول الباحث أيضاً ولو في إطار ضيق الوقوف على قضية بلاغية محددة الجوانب، لمعرفة كيفية تناولها من قبل الفلاسفة والبلاغيين منهم العلم المقصود بالدراسة .

■ منهجية البحث:

سيتبع الباحث في هذا المحتوى نهجاً استقرائياً يعتمد على الوصف والتحليل لجمع حصيلة علمية موجزة عما تتضمنه فروع الدراسة، كما أن هناك محاولات للربط بين بعض القضايا التي تناولها البلاغيون في التسلسل التاريخي المتبع في كتابة البحث.

■ أهداف البحث:

يهدف العمل البحثي إلى تتبع بدايات ارتباط الفلسفة العربية بالبلاغة، منذ اشتغال المتكلمين من علماء المعتزلة والأشاعرة بهذا العلم، كما يهدف إلى النظر في كتاب سرّ الفصاحة للعالم الجليل ابن سنان الخفاجي، الذي أظهرت تحليلاته ارتباطاً كبيراً بالفلسفة من خلال تعريفاته وشروحاته .

■ الدراسات السابقة:

- 1 - (تأثيرُ الفلسفةِ اليونانيةِ في البلاغةِ العربيةِ منَ القرنِ الثَّانيِ إلى السَّادسِ الهجْري، سامية عمر المشرف)، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، أطروحة دكتوراه، تناولت فيها الباحثة التفكير الفلسفي وارتباطه بالبلاغة العربية في الفترة الزمنية المذكورة بدءا بالجاحظ وانتهاء بالسكاكي .
- 2 - (المنهجُ البلاغي عندَ ابنِ سنانِ الخفَّاجيِّ، زينب بن قيراط) مجلة البدر، مج 9، ع 9 سنة 2007 م، تناولت فيه الباحثة المنهج البلاغي في كتابه سر الفصاحة مبتدئة بالصوت حتى الكلمة وشروط فصاحتها .
- 3 - (التناسبُ في كتابِ سرِّ الفصاحة لابنِ سنانِ الخفَّاجي، هاشم العزام) مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مج 10، ع 2، 2013 م، تناول فيه الباحث قراءة مصطلح التناسب في الكتاب.

■ المطلب الأول:

● البلاغة العربية والفلسفة

1 . مدخلٌ تاريخيٌ

« جرت العادة عند الباحثين أنهم إذا نظروا في ظاهرة من الظواهر أو علم من العلوم، أن يرجعوا البصر إلى التاريخ منذ النشأة أو الابتداء، ثم ينزلون منه عبر القرون إلى يوم الناس هذا، فكثير من التطور أو التغيير قد داخل البلاغة في مصطلحاتها ودلالاتها عبر هذا التاريخ الطويل، وتداولها في البيئات المختلفة من لدن اللغويين إلى طبقة الأدباء والكتاب، فضلا عن الفلاسفة أو علماء الكلام، والفقهاء أو رجال الأصول، فكل هؤلاء قد أسهموا في المصطلحات البلاغية وأخذوا وعدلوا فيها . »⁽¹⁾

إن تتبع التطور التاريخي أمر كتب فيه عددٌ من الباحثين، فابتدأوها عند اللغويين ممن قال إن البلاغة ابتدأت بكتاب سيبويه إلى الجاحظ والجرجاني والزمخشري ومن لحقهم وصولا إلى القرن السابع الهجري، أمر معلوم، وتناولته كثير من الكتب المعنية بتاريخ الأدب والبلاغة على حد سواء .

« منذ العصر الحديث والنفوس شاخصة إلى البلاغة في أصولها الأدبية أو الأعجمية، وقد أدرك القدماء أنفسهم هذا الفارق بين البلاغتين، فسموا إحداهما البلاغة على طريقة العرب والبلغاء، والأخرى على طريقة العجم وأهل الفلسفة فيما يقول السيوطي .» (2)

هذا تقسيم واضح وتفریق بين البلاغتين بلاغة العرب وبلاغة متأثرة ببلاغة العجم وقد ذكر الباحث رأيه هذا في مقدمة البحث، حيث إن بلاغة لغة أعجمية كيف لها أن تتناسب مع لغة أخرى غير هذه اللغة الأعجمية، إلا إن التأثر قد يطرأ أحياناً على بعض الجزئيات، أما قول من قال إن البلاغة العربية هي في أصولها بلاغة يونانية فلسفية، وتأثرها الكامل ببلاغة فلاسفة اليونان ربما ينفي صفة الإعجاز عن القرآن الكريم ويؤكد أن فصاحة العرب ولسّنه إنما هي أمر طارئ دخيل على أهل لغة القرآن، استوردوه من بلاغات لغات أخرى .

« إن شخوص المجددين في هذا العصر إلى استحياء البلاغة على طريقة العرب والبلغاء ما تزال جهودهم قصراً على الباحثين، دون أن يستقيم معهم مذهب تعليمي يتفق وجميع المتلقين، على عكس طريقة العجم وأهل الفلسفة، وهي طريقة السكاكي والقزويني والتفتازاني ومن لفّ لفّهم، وهؤلاء الأعاجم ما فيهم إلا فيلسوف أو عالم من علماء المنطق، فاستطاعوا بذلك أن يقيموا البلاغة علماً له هذه الأصول والقواعد التي نعرفها جميعاً .» (3)

ربما يقصد المؤلف هنا أن البلاغة تجددت عندما نحت البلاغة نحو الفلسفة على أيدي من أراد لها ذلك، وحدد أعلامها بالسكاكي والقزويني والتفتازاني، فاستطاعوا بمنطقهم أن يضيفوا جديداً إلى هذا العلم ويؤطروا البلاغة بصفته علماً مستقلاً عن بقية العلوم .

2. الآثار الفلسفية الأولى وإسهامات المتكلمين في نضوج علم البلاغة

« ظل المتفلسفون طوال القرن الثالث الهجري يرددون ما عرفوه من قواعد البلاغة عند أرسطو وفلاسفة اليونان، وتجرد منهم من يحسنون الترجمة عن اليونانية وربما

السريانية، لنقل خلاصات لكتابي الشعر والخطابة لأرسطو إلى العربية حتى يقف المحافظون من اللغويين ومن ينتظمون في صفوفهم على مقاييس البلاغة اليونانية ومن أقدم هذه الخلاصات مختصر كتاب الشعر للكندي 252هـ، ورأوا أن هذه الخلاصات لا تفيد الفائدة المرجوة في تصوير تلك المقاييس فعمدوا إلى نقل الكتابين تامين كاملين»⁽⁴⁾ يؤكد الدكتور شوقي ضيف هنا ترديد الفلاسفة العرب لقواعد البلاغة الأعجمية وفلسفة اليونان، وهذا لا يدفع لإنكار التأثير إنكارا تاما، غير أن الجودة والابتكار في هذا العلم لوحظتا بقوة إذا تتبع التطور العلمي للبلاغة تتبعا تاريخيا .

إن الملخصات لكتب أرسطو وفلاسفة اليونان تعد خطوة أولى خجولة لربط الفلسفة بعلم البلاغة العربية، وإن لم يجانبنا الصواب نستطيع القول إن أول كتاب به محاولات فلسفية لربط البلاغة بالمنطق هو كتاب « (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر (337هـ) واشتهر بين معاصريه بثقافته العميقة بالفلسفة والمنطق ويستهل كتابه (نقد الشعر) بأن العلم بالشعر ينقسم أقساما علم ينسب إلى عروضه ووزنه وقسم ينسب إلى علم قوافيه وقسم ينسب إلى علم غريبه وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه .»⁽⁵⁾

« يبدو تأثر قدامة بالفكر اليوناني في تنظيمة للكتاب واضحا، إذ جعله فصولا ثلاثة أما الفصل الأول فبدأه بتعريف الشعر، وبيعض مقدمات ضرورية، ثم بيان أجزائه، وأما الفصل الثاني فتحدث فيه عن نعوت الجودة في الشعر، وأما الفصل الثالث فخصه بعيوب الشعر ونعوت رداءته، وإذا تتبعنا استهلاله للفصل الأول تجد أنه يستمد مباشرة من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها إلى غير ذلك .»⁽⁶⁾

وإذا وجهنا أنظارنا نحو المتفلسفة من المتكلمين يقابلنا في القرن نفسه الرابع الهجري كتاب (النكت في إعجاز القرآن) « ومؤلفه (علي بن عيسى الرماني 386 هـ) وهو أحد أعلام المعتزلة في عصره وله مصنفات كثيرة في التفسير واللغة والنحو وعلم الكلام، وبهنا من رسالته هذه حديثه عن البلاغة، وهو يبتدئ حديثه فيها بأنها على ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا، والعليا هي بلاغة القرآن والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تقاتهم في

البلاغة، ويقول: إن البلاغة على عشرة أقسام هي: الإيجاز والتشبيه والمبالغة والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان ويفصل فيها القول جميعاً، وواضح من خلال رسالته أنه أضاف في حديثه عن البلاغة إضافات جديدة إلى من سبقوه، فقد حدد بعض فنونها تحديداً نهائياً، ورسم لها أقسامها رسماً دقيقاً. (7)

« ومن الكتب المصنفة أيضاً، كتاب (إعجاز القرآن للباقلاني 403 هـ) وهو من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة وهو يستهل كتابه بالتعرض لمطاعن الملاحدة على أسلوب الذكر الحكيم ثم يجعل أول فصل في كتابه لبيان أن القرآن معجزة الرسول ﷺ، وهي معجزة تقوم على بلاغته ويستشهد لذلك بأي من القرآن الكريم، ويفتح فصلاً لبيان وجوه الإعجاز القرآني في رأيه ورأي الأشاعرة من أصحابه (8)

ومن الكتب التي يجب ذكرها مصنف (إعجاز القرآن للقاضي أبو الحسن عبد الجبار 415 هـ) قاضي قضاة الدولة البويهية، وعلم كبيراً من أعلام المعتزلة في عصره، وبهنا الكتاب من حيث موضوع البلاغة وخصص لها فصلان قصيران عرض في أولها رأي شيخه أبو هاشم الجبائي في الفصاحة التي يفضل بها بعض الكلام على بعض وفي الفصل الثاني عرض رأيه الخاص في الوجه الذي يقع له التفاضل في فصاحة الكلام. (9)

ومن الكتب المهمة التي أحدثت نقلة في علم البلاغة هي كتب (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وكلاهما لعبد القاهر الجرجاني 471 هـ) « واسمه عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ولد بجرجان، كان فقيهاً شافعيًا ومتكلماً أشعرياً، وله مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعا دقيقاً، أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصيلها كتابه (دلائل الإعجاز) وأما الثانية فخص بها كتابه (أسرار البلاغة) والملاحظ أن قسمة البلاغة إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبدیع لم تكن قد استقرت حتى عصر عبد القاهر، ودائرة كتاب (دلائل الإعجاز) تدور حول نظرية النظم التي اشتهر بها عبد القاهر. (10)

ومن المؤلفات التي ساهمت في تطور علم البلاغة في القرن الخامس والسادس الهجريين مؤلف تفسير « (الكشاف) ومؤلفه أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري 538 هـ) وهو

من عيون كتب التفسير بالرأي، ومن أشهر تفاسير المعتزلة، ومنهج الزمخشري فيه منهج علمي، يعتمد على تحليل التراكيب ثم إيضاح دلالاتها اللغوية والبلاغية وصولاً إلى إثبات إعجاز القرآن ببلاغته، ملتزماً في ذلك المنهج الذي قرره عبد القاهر الجرجاني في إثبات إعجاز القرآن، ونجح الزمخشري في الفوص على دقائق المعاني وتمكن من إبرازها بأسلوب رائع جلى فيه الخصائص الأسلوبية للقرآن الكريم .» (11)

■ المطلب الثاني:

● قراءة في مفهوم دلالات الألفاظ وتناسبها في كتاب (سرّ الفصاحة) لأبن سنان الخفاجي وسمات تأثره بالمنطق العربي .

« عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي الحلبي، شاعر، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره، وكانت له ولاية بقلعة (عزاز) من أعمال حلب، وعصي بها فاحتيل عليه بإطعامه (خشكانجة) مسمومة، فمات وحمل إلى حلب سنة 466 هـ، له ديوان شعر وله كتاب سرّ الفصاحة »، (12) من شعره في التفجع (13):

أَعْنَفُ فَيْكِ الْوَجْدَ وَهُوَ مُبْرَحٌ .. وَأَعْتَبُ فَيْكِ الدَّمْعَ وَهُوَ نَجِيعٌ

3. اصطلاح الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان

قبل التحدث في أمر الألفاظ والمعاني ودلالاتهما نرجع بالحديث على معنى الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان وكلامه فيها يقول: « الفصاحة الظهور والبيان، ومنها أفصح اللين إذا انجلت رغوته وفصح فهو فصيح، قال الشاعر: وَتَحْتِ الرِّغْوَةِ اللَّيْنُ الْفَصِيحُ » (14) ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوءه، وأفصح كل شيء إذا وضع وفي الكتاب العزيز (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي). (15)

« والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه » (16)

كعادة كل المصنفين ذكر ابن سنان تعريفاً للفصاحة مستدلاً على قوله بأمثلة من شعر العرب وعزا ذلك إلى اللب وانجلاء رغوته وهذا ما فسره بقوله إن الفصاحة هي الظهور والبيان وإزاحة الشيء لرؤية ما حجب رؤيتهً واضحاً، وهذا مفهوم الفصاحة عنده، وفرق ابن سنان بين الفصاحة والبلاغة بل عدّ أن أحدهما كلُّ الآخر جزء وهذا تأكيد على ما سبق ذكره .

« وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو، وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزئها فكلامى المقصود، وهو الفصاحة غير متميز إلا في الموضوع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدمت ذكره . » (17)

ثم يذكر ابن سنان أن تعريف البلاغة تحدث فيه الكثيرون ممن سبقه ويفضل هذا الشرح لإبراهيم بن محمد المعروف بالإمام « يكفي من حظ البلاغة أن لا يوتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع . » (18)

يقول ابن سنان في هذا التعريف إنه من أحسن ما قيل ويعده تعريفاً جامعاً، فالتعريف يتحدث عن العلاقات بين الناطق والسامع أي بين الألفاظ ومتلقيها، وهذه علاقات نفسية أن صح القول أو بذرة لاكتمال العلاقة بين النص ومتلقيه .

4. تقسيمات الألفاظ وآلية تناسبها لأداء معنى الفصاحة

قبل الولوج إلى فلسفة ابن سنان في أمر تناسب الألفاظ بعدها مفردة أو غير مفردة، نعكف على تعريف مصطلح (التناسب) .

يقول ابن فارس 395 هـ: " النون والسين والباء كلمة واحدة وقياسها اتصال شيء بشيء، ومنه النسب سمي لاتصاله وللاتصال به . " (19)

يقول الزركشي 794 هـ: « واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة . » (20)

يُقسّم ابن سنان في كتابه (سرّ الفصاحة) الألفاظ إلى ضربين يُعدها شروطاً للفصاحة،

ضربٌ من الألفاظ المفردة التي تؤدي دلالتها الفصيحة دون تألف مع لفظ آخر، وضربٌ من الألفاظ التي يتألف بعضها إلى بعض لتؤدي معنى الفصاحة، فيقول: « إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضعافها تستحق الأطراح والذم»⁽²¹⁾ وتلك الشروط تنقسم قسمين: فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .»⁽²²⁾

أ - التناسب في الألفاظ المفردة:

« تحدث ابن سنان عن التناسب في الألفاظ المفردة من خلال عدة أمور فنية متى توافرت في اللفظ المفرد وصف باللفظ الفصيح⁽²³⁾ منها التناسب في البنية الصوتية للفظ المنفرد، فمتى تحقق يتحقق التلاؤم على أساس حسن الكلام في السمع⁽²⁴⁾، الناجم عن صفات الألفاظ من جهة أصوات الحروف، كما تحدث عن اللفظ المفرد من الناحية النحوية واللغوية والصرفية وحتى الذوقية والاجتماعية، من حيث قبول اللفظ وجريانه على العرف والعادة، وما يآلفه السمع والذوق وما يمجه وينصرف عنه⁽²⁵⁾، ويكاد يُجزم الدارس أن ابن سنان قد استوفى الشروط التي تتبعها للفظ المفرد كي يرتقي لمرتبة الفصاحة .

ونأتي لذكر الشروط الثمانية تفصيلاً وأولها « أن فصاحة اللفظة تتحقق عندما يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ويمثل بهذا ذكر الألوان المتباينة يكون إذا جمعت تكون أحسن في المنظر من الألوان المتقاربة كالسواد مع البياض أحسن منه مع الصفرة .»⁽²⁶⁾ ما ذكر هذا ينبغي عن ذوق رفيع يتمتع به ابن سنان، وربط تناسب الألوان، بقضية تناسب الألفاظ المفردة، يخبر عن عين فاحصة وفلسفة رتبها عالية عند المصنف، يقول الأخصري في منظومته:

فَصَاحَةُ الْمُفْرَدِ أَنْ يَخْلُصَ مِنْ .. تَنَافُرِ غَرَابَةِ خُلْفِ زُكُنٍ⁽²⁷⁾

والشرط الثاني « أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية »⁽²⁸⁾ ومثّل لذلك بقول

المتنبّي:

إذا سارت الأحداج فوق نباته .. تضاوح مسك الغانيات ورنده

والشرط الثالث « وهي أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية »⁽²⁹⁾ ومثّل بذلك بيت

أبي تمام:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه .. بلا طالع سد ولا طائر كهل

فكلمة كهل هنا لفظ وحشي لا تذهب مذهب المؤلف للأسماع، وهذا ما نبه ابن سنان

الشعراء من الخوض فيه .

كما ذكر ابن سنان أن من التناسب في اللفظة المفردة « أن تكون الكلمة غير ساقطة

عامية، كقول أبي تمام:

جليتْ والموتْ مُبْدٍ حُرِّصَفْحَتِهِ .. وَقَدْ تَفَرَّعْنَ فِي أَفْعَالِهِ الْأَجْلُ

فإن تفرعن مشتق من اسم فرعون وهو من ألفاظ العامة⁽³⁰⁾ وهذا يظهر للدارس أن ابن

سنان يركز على تحذير الشعراء من السقوط في اسخدام هذه الألفاظ وابتذال الشعر بها.⁽³¹⁾

ومن شروط التناسب في الألفاظ المفردة « أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي

الصحيح غير شاذة»⁽³²⁾ وفي هذا العرف يطوف على طائفة من الشواهد التي خالفت

العربي منها قول أبي الشيبص⁽³³⁾:

يشقّ عليه الريحُ كُلَّ عَشِيَّةٍ .. جيوبَ العَمَامِ بَيْنَ بَكْرٍ وَأَيْمٍ

فوضع الأيم مكان الثيب، وليس الأمر كذلك، ليس الأيم الثيب في كلام العرب، وإنما

الأيم التي لا زوج لها بكرة كانت أم ثيبا .⁽³⁴⁾

ويسترسل ابن سنان في ذكر شروط الفصاحة في تناسب اللفظة المفردة ويمثّل لكل

منها بمثال أو أكثر في سابقة تكاد تختلف عن سابقه ممن تناولوا قضية اللفظ المفرد

والتناسب فيه.⁽³⁵⁾

ب) التناسب في الألفاظ المؤلفة

« إن التناسب خاصية مهمة من خصائص البلاغة فهو قرين الوحدة وهو حالة من التناغم بين العناصر، تضم المؤتلف والمتباين وتوقع التشابه بين ما يبدو مختلفا للوهلة الأولى . (36)

« والدارس في هذا المحور يبحث عن التناسب في السياق الذي يتشكل من كلمات تضاف بعضها لبعض من أجل تشكيل نص خال من العيون ما أمكن محاولا أن يرقى بالمعنى إلى درجة توصله حد البلاغة . » (37)

« يتحدث ابن سنان في هذا المحور عن التأليف شعرا ونثرا، مستحضرا الصورة الصناعية في العملية الإبداعية، فيتحدث عن موضوع الصانع ويحدد النجار أنموذجا والصورة والآلة لطلب التناسب والدقة في كل هذه المكونات . (38) ثم يتحدث عن صفات توجد في التأليف، من شأنها تجويد التركيب والرقبي به والابتعاد به عن كل ما يشينه ويصفه بالركاكة والضعف ويبعده عن الفصاحة . (39)

والخفاجي بهذا تجاوز التناسب من اللفظة المفردة إلى تناسب الألفاظ مع بعضها حتى تضمن سلامة الكلام ويتصف بالآتي « تأليف اللفظ من حروف متباعدة المخارج، وبيانه أن يجتنب الناظم تكرار الحروف المتباعدة في تأليف الكلام . » (40)

الأمر الثاني: « أن تجد اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها، ثم يقول: ونعود إلى ما يختص بالتأليف وينفرد له إذ إن أحد الأصول في حسنه وضع الألفاظ حقيقة أو مجازا لا ينكره الاستعمال ولا يبعد فهمه » (41)

وفي هذا المقام يؤكد ابن سنان استقلالية المبدع ودوره في العملية الإبداعية، بالرغم من أنه لا يبرر أي عبث أو إخلال في النظام التركيبي للجملة، لكن تظل للمبدعين رؤاهم وتراكيبهم الخاصة، التي تمنح النصوص رونقا وجمالا وبلاغة جملة . (42)

■ الخاتمة

1. يرجح أن ارتباط الفلسفة العربية الإسلامية بعلم البلاغة كان منذ اشتغال المتكلمين المعتزلة والأشاعرة بها، وبإمكاننا القول إنهم هم من أبرزوا وطوروا فكر الفلسفة عامة، إلا إن هناك من يعزو تأثرهم إلى الفلسفة اليونانية وهذا يعد رأياً .
2. يدور كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان حول موضوع الفصاحة والتناسب، من خلال طرحه وتعريفاته لمصطلحي الفصاحة والبلاغة يتبين لنا تأثره بالفلسفة العربية .
3. حدد الخفاجي شروطاً للتناسب في الألفاظ المفردة والمركبة، واستشهد بعدة نصوص من التراث الأدبي العربي، في تحليل وتفسير يبين من خلاله تأثره بالفكر المنطقي والفلسفي .
4. ذكر الخفاجي أن من شروط التناسب في الكلمة المفردة أن تكون الكلمة قد جرت على العرف العربي، غير شاذة، وهذا يبين مذهب الخفاجي المؤلّد الذي يستحب اللفظ بين بين، لا هو حشي متوعر ولا ساقط سوقي، حتى جعله شرطاً من شروط التناسب.

■ الهوامش

- 1 - حلمي علي مرزوق، في فلسفة البلاغة العربية، 1999 م، ص 11، 12 .
- 2 - المرجع نفسه، ص 13 .
- 3 - نفسه، ص 13 .
- 4 - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط 9، دار المعارف، ص 75 .
- 5 - المرجع نفسه، ص 78 .
- 6 - نفسه، 79، 80 .
- 7 - نفسه، 103، 104، 107 .
- 8 - نفسه، ص 107، 108 .
- 9 - نفسه، ص 114، 115 .

- 10 - نفسه، ص 160 .
- 11 - عبد الرحمن عطبة، مع المكتبة العربية، ط 2، 1984 م، دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع، ص 377 .
- 12 - خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، بيروت، لبنان، ج 4، ص 122 .
- 13 - أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت لبنان، ج 1، ص 459 .
- 14 - أبو محمد ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، تح: علي فودة، ط 1، مكتبة الخانجي، ص 55 .
- 15 - المصدر نفسه، ص 55 .
- 16 - المصدر نفسه، ص 55، 56 .
- 17 - نفسه، ص 57 .
- 18 - نفسه، ص 58 .
- 19 - أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبدالسلام هارون، 1979 م، دار الفكر، ج 5، مادة (ن س ب)
- 20 - بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل، ط 1 1957 م، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج 1، ص 35 .
- 21 - (الخفاجي) أبو محمد ابن سنان، سرّ الفصاحة، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982 م، ص 63 .
- 22 - أبو محمد ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، ص 63 .
- 23 - هاشم العزام، التناسب في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، (مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب) مجلد 10، ع 2، 2013 م، ص 1672 .
- 24 - المرجع نفسه، ص 268 .
- 25 - المرجع نفسه، ص 268 .
- 26 - أبو محمد ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، ص 64 .
- 27 - عبد الرحمن بن صغير الأخضر، الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، تح: د، محمد بن

- عبد العزيز نصيف، منشورات مركز البصائر للبحث العلمي، ص 23 .
- 28 - أبو محمد ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، ص 64 .
- 29 - المصدر نفسه، ص 66 .
- 30 - سرّ الفصاحة، دار الكتب، ص 73 .
- 31 - هاشم العزام، التناسب في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ص 1675 .
- 32 - سرّ الفصاحة، دار الكتب، ص 77 .
- 33 - هاشم العزام، التناسب في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ص 1675 .
- 34 - سرّ الفصاحة، دار الكتب، ص 77 .
- 35 - انظر: سرّ الفصاحة، طبعة دار الكتب العلمية، ص 77 وما بعدها .
- 36 - جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسات في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 5، 1995 م، ص 341 .
- 37 - هاشم العزام، التناسب في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ص 1677 .
- 38 - سرّ الفصاحة، دار الكتب، ص 93 .
- 39 - هاشم العزام، التناسب في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ص 1677 .
- 40 - سرّ الفصاحة، دار الكتب، ص 97 .
- 41 - نفسه، ص 97، 107،
- 42 - انظر: سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، (الكلام في الألفاظ المؤلفة) ص 92 وما بعدها .

■ المصادر والمراجع

1. بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل، ط 1 1957 م، دار المعرفة، بيروت، لبنان .
2. جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسات في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 5، 1995 م .
3. أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبدالسلام هارون، 1979 م، دار الفكر.
4. خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، بيروت، لبنان

5. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط 9، دار المعارف .
6. أبو العباس شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت لبنان .
7. عبد الرحمن بن صغير الأخضرى، الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، تح: د، محمد بن عبد العزيز نصيف، منشورات مركز البصائر للبحث العلمي .
8. عبد الرحمن عطبة، مع المكتبة العربية، ط 2، 1984 م، دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع، ص 377 .
9. أبو محمد ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، تح: علي فودة، ط 1، مكتبة الخانجي .
10. أبو محمد ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982 م .
11. هشام العزام، التناسب في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، مجلة اتحاد الجامعات العربية للأدب، مج 10، ع 2، 2013 م .